مسقـــط.. مدينة الثقافة والتراث

محمد الغربي عمران

في البدء هو الشكر لأدباء عمان وأخص منهم أعضاء الجمعية للكتاب والأدباء.. وعلى رأسهم الأديب الكبير د/محمد العريمي رئيس الجمعية ومن جعل من اجتماع المكتب التنفيذي للأدباء العرب عرسا ثقافيا عمانيا جميلا, قدم فيه المشهد الثقافي العماني في قالب متحضر لأشقائه العرب.. وجعل الأدب العماني أقرب إلى بؤبؤ العين. فشكرا كثيرا لمسقط ولذلك الوطن الغالي مزون.. مجان.. عمان. وتباريك عيدها الوطني الـ43 الذي صادف وجودنا بها من 24 إلى 28 نوفمبر أثناء احتفالات الأشقاء لنشاركهم الفرحة الدائمة.

أثناء ولوجي مطار صنعاء كانت صالة المسافرين شبه خالية. جميل أن تجد امرأة بدلاً من رجل خلف (كاونتر) شحن الحقائب وتخليص بطاقة صعود الطائرة. وثقيل أن تكتشف نفسك متأخراً حين تخبرك بأنهم على وشك إقفال استقبال الركاب. رغم أنه تبقى على الإقلاع ساعة ونصف, حين بينت لها ذلك ابتسمت وقال: هذا نظام الشركة.

تفلت من ابتسامتها المعدنية لتتوجه إلى موظف الجوازات, لا أعرف لماذا يعاملك موظفو الجوازات كمشتبه به, ينظر إليك الضابط مليا وهو يقلب صفحات الجواز, ثم يضغط على أزرار الكمبيوتر ليعاود النظر في ملامحك مرة أخرى وكأنه يكبح جماح وحش كاسر يود افتراسك, يمسك آلة ختم التأشيرة يطرق بها على إحدى الصفحات بعد مناورات, ثم على بطاقة صعود الطائرة , يعاود النظر إليك مرة ثالثة ورابعة بوجه متجهم, تحاول استقراء ما يعتمل بخلده, لكنك تفشل.. وهكذا يظل في حديث صامت يكتنفه الغموض, بعد حين يدفع إليك بأوراقك وجواز سفرك دون ابتسامة أو نظرة طبيعية.

مددت يدي قابضا على جوازي.. رفعت صوتي مبتسما شاكرا فلم يرد. تركته بداخل قفصه الزجاجي يستقبل ضحية جديدة.

مضيت قلقا نحو صالة المغادرين, يا للمفاجأة الصديق محمد العولقي أمين عام الإتحاد, صالح البيضاني الأمين الإداري يلبس جاكته البرتقالي بقصة شعر ذقن أنيقة. كنت آخر من في الصف .. الساعة هي الآن الرابعة عصراً. الضوء يتدفق من حائط زجاجي كبير. حاولت أن أمارس هوايتي مراقبة من على مقاعد الصالة.. ملامح بعضهم الغريبة لكن الوقت أضحى ضيقا وقد أصطف المسافرون أمام آخر بوابة ثم الصعود على حافلة تقلنا إلى سلم الطائرة.

كان مقعدي 8c أي في المقدمة وجوار النافذة. رغم أني كنت متأخرا في الوصول إلى موظفة بطاقة صعود الطائرة, أتضح لي بأنها تبدأ بملء مقاعد الطائرة من مقاعدها الخلفية .

حلقت القطرية في موعدها. سحب ممطرة تخيم فوق صنعاء, الطائرة تتجه شمالا, ثم تنحرف نحو الشرق, أرى المسطحات الزراعية تعكس أشعة شمس المغيب , وقد تشبعت بمياه الأمطار, أعمدة زخات السحب تتلوى في صفوف راقصة.. تنفرج الجبال وتتسع المساحات المفتوحة دون عوائق, لتظهر مساحات واسعة ..تلك السهول تتسع لألف صنعاء, لا أعرف لماذا أختار الأوائل لصنعاء ذلك المكان الضيق وكأنه عنق قمع بين جبلي نقم وعيبان, لما لم يختاروا لها تلك الفلاة الواسعة والمتسعة حد العجب. تزداد الطائرة علوا والتصاقا بسقف السحب الداكنة ..تخترقها .. تصعد وسط عتمتها للحظات أظلم كل شيء حتى ظننت بأننا غرقى السحب, ثم فجأة علت بنا فوق السحب الممطرة, شمس تتماس مع أفق بعيد ..سماء زرقاء يحيطها الزمن الزعفراني , كثبان من السحب الشاسعة, حجبت الأرض عنا. مضت بنا الطائرة ومضى الوقت لتحتجب الشمس مخلفة لمعان البروق التالية .

عدة مضيفات: أحداهن من شرق آسيا, وأخرى من أقصى المغرب العربي, هندية... الكل لا يتعامل إلا بغير العربية, وأنا لا أعرف غيرها, اعتصمت بالصمت أراقب, كأنهن في حفل سماوي علي وجوههن ابتسامة مدربة على العذوبة, أحد الركاب يتحلى لإحداهن, يزيد في ابتسامته, غترة ملفوفة على رأسه ثوب أبيض يتقنص مرورها جوار مقعده يتعذر بطلبات عدة. تجيد التعامل معه, شابة على مقعد موازٍ وقد غطت بشرة وجهها بطبقة فاقعة من المساحيق, بل أظنه قناعاً يشبه قناع المهرج, حاجبها عريض تذكرني بحواجب هولاكو.. من إلى جوارها ظننته ليس زوجها لولا طفل يتبادل معها حمله.

نسيت زملاء الرحلة العزيز صالح والعولقي اللذان كانا نصيب مقاعدهما في المؤخرة, انشغلت بتصرفات من حولي بكلماتهم, بل أستمتع بممارستها. المقعد الذي خلفي ثلاث بُهريات بملابسهن الملونة, إحداهن سفت ماقدم لها من طعام, ثم التحقت بملاك النوم لتسطح حنجرتها بعزف نشاز عكس ملامحها الملائكية. تخيلت زوجها كيف يكون أيكون في مثل حسنها, أم... كيف يتعامل مع عزفها النشاز.... شغلني فلم بطولته أحمد حلمي. يقدم الفلم أحمد حلم كمندوب دولة إلى دولة أخرى.. ذاهب ليحاورها في أمور سرية..

انشغلت وقد اندمجت مع أحمد حلمي في فيلمه يالرعب المال حين يمتلكه ظالم غشوم.. إما وقدمك قديساً أو إبليساً.

يئست من محاورتي للعربان.. حاولت متابعة أحمد حلمي .. أن أتابع الفلم لكنه كان في نهايته.

أضواء سقف الطائرة جعلتني أشعر بأني في كبسولة وبشعور رائد فضاء, وكأني واحد من أولائك الذين شاهدناهم في بعض الأفلام أو لحظات انطلاق المكوك. وهكذا قضيت ساعتين على القطرية بشعور من يعبر الفضاء بداخل كبسولة. شعور جميل اكتشفت زيفه لحظات سماعي صوت المضيفة عبر الميكرفون تنبهنا لربط الأحزمة وتعديل مساند المقاعد لقرب الهبوط.

القطرية تحمل من صنعاء الركاب إلى الدوحة ومن هناك يتفرق كل إلى وجهته, نحن إلى عمان, وآخرون إلى الجزائر, الكويت, مصر, الإمارات, ودول شرق آسيا. أوه صوت المضيفة ينصحنا بربط الأحزمة بعد رجة أصابت كبسولتنا الفضائية. أرتج الجميع وأرتفع الهمس. وتغيرت المواضيع . الدوحة نقطة الجمع والتفرقة.. هذا يذكرني ببعض من يتعاملون مع شمس المعارف الكبرى, حين يجمع الجن ويفشل في صرفهم. لكنها الدوحة في كل لحظة تجمع وتفرق وكأن الجميع هنا سحرة.

صراخ طفل لم أحدد موقعه بين مقاعد الكبسولة, حرقة وألم شديد, تعاطفت مع من يحمله إذ أننا نريد ألا يكون الطفل طفلاً وأن يتصرف وفق مزاجنا. صوت المضيفة يردد كلمات يبدو أنها توجيهات ليس باللغة العربية.. وهكذا كلما مر بنا بالوقت يتكرر ذلك الصوت وبنفس اللغة حتى تلك الإرشادات التي تسبق هبوط الطائرة. أمر عجيب أن تصل إلى مطار الدوحة ولا تجد لسانا عربيا تسأله عن بطاقة الترانزيت وماذا عليك فعله.. الكل من خارج الوطن موظفون تلمع بشرتهم السوداء والصفراء.. من بقاع متباعدة يجمعهم العمل واللغة. قبيل هبوطنا حلقت الطائرة فوق الدوحة طبق من نور أنوار مهوولة ومساحة من النور تبعث في الروح البهجة.

مطار مهول وواسع لأسطول يتجاوز الثلاثة آلاف وخمس مائة طائرة المها. هذا ما قرأته على صفحات مجلة في جيب مقعد الطائرة, مبان منفصلة كل مبنى عالم من المساحة والأدوار , مبنى الترنزيت به أكثر من 44 بوابة , وخلف كل بوابة مآت المقاعد التي ينتظر الركاب موعد قيام رحلاتهم.

أسواق عديدة في طوابق كثيرة وبمساحات أفقية واسعة. مطاعم مقاهٍ مساجد معابد.. الساعة 19 أي الـ7 مساءً وصلنا لننتظر أمام بوابة 22 حتى الساعة 21.. ومنها هبطنا من الدور الثاني إلى ممر مزدحم ثم عبر بوابة إلى حافلة ومنها إلى طائرة أخرى.

الرحلة من صنعاء إلى الدوحة ممتلئة, وخمنت أن الناس هاربين من انقطاع الكهرباء, فقط الكهرباء ما يضيقني في البلد , حين حلقت الطائرة في أجواء الدوحة من جديد أحببت أن أتأمل تلك الأنوار كانت الأضواء تحتنا كثيرة .

طائرة الرحلة إلى مسقط مقاعدها خاوية.. زملاء الرحلة هدى أبلان والبيضاني والعولقي استمروا في عزلي بشكل غير معلن.. يجلس ثلاثتهم معا على مقاعد متجاورة.. , نلتقي أثناء الهبوط في صالات المطار في الممرات .. أحاول جذب أحدهم لمصاحبتي فلا أنجح. أنظم إليهم يتكلمون في العموميات, يتجنبون الحديث فيما أدفعهم للحديث إليه.. ما أدهشني تلقائية أحدهم وهو يتصرف معي بنوع من التعالي وألا مبالاة. أما الأمينة العامة فتتعامل كما يتعامل الذكي مع كائن غبي تظهر عدم معرفتها بالأشياء وأنها تود أن نساعدها. لكنني استمتعت بمعاملتهم لي وأنا أرى سعادتهم بتذاكيهم علي, العولقي كان ضمن عزف الثلاثة لي. المهم أنهم ظلوا في تماسكهم تجاهي أو أنني كنت واهماً.

لأول مرة أرى طائرات عمانية على أرض مطار مسقط, لها شعار يشبه لون سيجارة كمران اليمنية ذا اللون المتموج الأزرق.

المطار بمبانيه البيضاء البسيطة وصالاته الفسيحة الضاحة بالوافدين الهنود , الزي العماني المميز :شدة المصر على الرأس الثوب الأبيض الفضفاض. ذلك الخنجر ذا الجراب الفضي والمقبض العاجي هو ما يتزنر به بعض القوم. مجموعة من موظفي الاستقبال كانوا في انتظارنا .. صادف وصولنا وصول أدباء من السودان: الشاعر عمر قدور والشاعر الفاتح حمدتو وآخرين. يدرك الزائر إن لمسقط ملمحها الجمالي المغاير.. شوارع فسيحة .. فضاءات مشجرة. أربعة ألوان تتقاسمها مسقط : زرقة السماء وبياض المباني وخضرة شاسعة تلون الدوارات والشوارع والساحات ورابع الألوان سواد الإسفلت.. كل شيء نظيف ومرتب. الأصوات خافتة. فندق كننتل على شاطئ القرم يحتضنه البحر. غرفة 201 هي غرفتي لم تكن مطلة على البحر كما أحب أن أرى ذلك المسطح المتماوج.

صباح اليوم الثاني غصت قاعة حفل الافتتاح بالأصدقاء من أدباء مصر والمغرب وتونس.. والجزائر.. ولبنان والبحرين والعراق وفلسطين. والإمارات.. والأردن.. والسودان سوريا.. وجمع كبير من الأدباء العمانيين. قاعة واسعة تحت طوابق مبنى الفندق.

كلمات وخطب, جائزة القدس سلمت للأديبة المغربية خناتة بنونة. التي أهدتها للفلسطينيين, برنامج الحفل ثري بالكلمات المكررة. لكن الجميع أشاد بدقة التنظيم وكثافة الحضور برعاية وزير التراث والثقافة صاحب السمو السيد هيثم بن طارق آل سعيد.

أعقب حفل الافتتاح جلسة المكتب الدائم للاتحاد العام للأدباء العرب وعادة ما يدخلون في حوارات سقيمة وجافة. لم أحضره وفضلت الذهاب للتعرف إلى مدينة من أجمل المدن العربية ليس بمبانيها الرأسية بل بفضاءاتها الجميلة.

التقينا بعدد من الأصدقاء العمانيين ممن يتعاطون كتابة الرواية والقصة. احتفائية كبيرة تلك التظاهرة التي استضافت السلطنة ما يقارب السبعين أديبا من مختلف الأقطار. وأعدت حزمة من الأنشطة المتميزة والندوات الأدبية لتقدم المشهد الثقافي العماني المتألق والمدهش للجميع.

في اليوم الثاني اصطحبنا الروائي يعقوب الخنبشي على سيارته وبمبادرة منه ودكتور محمد عبيد الله والأستاذ أحمد نشوان والشاعر زياد أبو لبن. الجميع من الأردن. طاف بنا أحياء وضواحي مسقط ومطرح, لم يعد بين المدينتين من فاصل, تلك الشوارع الواسعة والمشجرة والمزهرة. فضاءات بيضاء لمدينة تتخلل الجبال والتلال , يحيطها البحر وتنسال بين صخورها وجبالها مبانيها البيضاء, تسكنها قلاع معلقة على مشارف الجبال. حديقة القرم, حديقة تنموا أشجارها من اليابسة لتقتحم البحر في منظر آسر , الحديقة محمية طبيعية تحتل مساحة شاسعة وسط أحياء المدينة وحتى البحر. وما أدهشنا أن يطوف بنا أنحاء القصر السلطاني في مسقط القديمة , عبر بوابة مسقط الأثرية, مرافق القصر وساحاته, لم يكن هناك من كتل خراسانية ولا عوائق وممنوعات ولم يكن من مظاهر مسلحة لجنود أما القصر. في حي القصر تزدحم مباني لمتاحف البحر والتاريخ والتراث والعلاقات بين عُمان ودول أخرى.

وإلى سوق الظلام بمطرح أصطحبنا الخنبشي. وهو سوق مسقوف بالأخشاب المعشقة. تتفرع تشعباته في مساحة واسعة, سوق البخور, سوق التحف, سوق الذهب سوق القماش.. الخ تلك التفرعات, لم نجد عمانيا يدير تلك الحوانيت غير قلة من أصحاب المحلات في السوق, ومن يسيطر على تجارة ذلك السوق ذوو السحنة الهندية يتجاوز نسبتهم في السوق القديم التسعين في المائة.

مسقط مدينة بيضاء ذا ملامح إسلامية عربية, تتخللها مساحات الجبال. شوارع فسيحة. يشعر الزائر بالأمان والطمأنينة , يخرج راجلا في أي وقت من الليل ضوء يملأ الأنحاء هدوء وشعور بالسكين في كل مكان.

النظام هو النظام يسري على الجميع . هنا الإنسان يشعر بكرامة واحترام كينونته كإنسان , إذ لا أحد أكبر من أحد.

في المساء حضرنا معرض للكتاب ومعرض للفنان التشكيلي حسين إدلبي . وهو المتميز برسم البورتريها الساخرة للأدباء والشخصيات العامة.

أيام ثلاثة مزدحمة بالاجتماعات .. وبزيارات تعريفية لأنحاء مسقط ومدن مجاورة . برنامج قادني لزيارة مجلس الدولة (البرلمان) وإلى مجلس الشورى.. ثم كان أن استضافتنا في رحلة بحرية على أحد يخوت السلطان, لتبحر من ميناء مطرح وحتى الغبة حيث السماء والبحر. تناولنا الغداء على سطحها.

حضرنا عدة ندوات بعناوين مختلفة منها: السياسة العمانية الخارجية ..ملامح الثقافة العمانية.. ومهرجان أبي مسلم البهلاني..وقد استمرت أيام المهرجان يومين .. قرأ أكثر من عشرين شاعرا نصوصهم, كما تم عرض فلم توثيقي للشاعر الذي عاش بين عمان وشرق إفريقيا (زنجبار) ومات هناك. وزع على الحضور ديوان للشاعر المحتفى به والذي أنشغل بحب الله والشوق للوطن. أقيم أكثر من معرض تشكيلي أشترك فيه أكثر من سبعة رسامين. رُتبت لي مقابلة في التلفزيون العماني.

كنت سعيداً بلقاء أصدقاء قاطعت بيننا السنون , الشاعر الرائع عبد الرزاق الربيعي.. والشاعر الجميل سعيد الصقلاوي مسقط.. مدحت الجيار مصر.. سمير درويش مصر.. عبد الرحيم علام المغرب.. الفاتح حمدتو الخرطوم.. جعفر العقيلي الأردن.. أسماء الزرعوني الشارقة.. محمود الرحبي مسقط..منى السليمية. محمد البدوي.. يعقوب الخنبشي مسقط, يحيى المنذري مسقط. أمل عبدالله الكويت محمد البدوي تونس, وبرقاوي والسوداني وزياد أبولبن من الأردن. وأسماء كثيرة تشعرك بمحيط طبيعي من الأدب والإبداع.

هذه هي مسقط مدينة نودعها في زيارتنا الثانية لها.. مدينة يسودها النظام والجمال..ولذلك ترى ان قوة تنفيذ القانون يقدم للزائر انطباعاً عن تحضر الشعوب.. ولذلك يحيل أي مجتمع إلى مجتمع متحضر بامتياز بغض النظر عن مستواه الاقتصادي. فلا يسمح بالعشوائية أو الفوضى..ولا بتلك المظاهر المخلة..تسير في شوارع واسعة ونظيفة..أرصفة تحفها الخضرة والورود.. فراغات مشجرة.. يعانق كل شيء بياض مبانيها..إنسانها النظيف والمرتب..الأكثر دماثة وتواضعاً .تعامل الجميع راق وفي كل مكان إنه النظام.

من الفندق إلى المطار أقلتنا عربة بعد أن أفطرنا وشربنا القهوة على مشارف حديقة الفندق حيث الهواء النقي ..هاهي المدينة كما استقبلتنا تودعنا, تبتسم بنظارة خضرتها ونظافة شوارعها وساحاتها.. إجراءات المغادرة كانت سلسة عدى بعض المنغصات..موظف ختم المغادرة أبقاني لأكثر من نصف ساعة وحين سلم لي الجواز سألته هل من مشكل ..فقال لا شيء. منغص آخر حين ظل مني كرت صعود الطائرة, ليبقوني على إسفلت المطار حتى ركوب جميع الركاب.. وحينها أصعدوني عبر بوابة المقدمة لمطابقة اسمي في الجواز مع كشف ركاب الطائرة الذي كان بين يدي إحدى المضيفات. وبعد وصولي الدوحة اكتشفت أن أن الكرت في أحد جيوبي..وقد أراد اللعب بأعصابي ليضعني في موقع المتسلل.

والتنغيص الثالث أن يجلس الأمين العام والمالي والإداري جوار بعض ويتركوني بعيدا رغم دعوتي لأحدهم بأن يأتي لنتونس ليرفض الجميع رغم أن ثلث مقاعد القطرية فارغة.. حينها تأكد لي بأنهم أكثر تماسكا ولا أستطيع كسب أحدهم .جلست وحيدا رافضا الوجبة الغذائية (سندوتش) دجاج وكأس عصير..ففضلت نوح حروفي ووحدتي على مقعد 28f

أطل من النافذة ..تحلق الطائرة فوق جبال جدباء..ثم تأخذ بالعبور فوق صحراء ذهبية تتخللها مساحات مستصلحة خضراء.. تكسر بخضرتها وأشكالها الهندسية سيطرة ملامح الصحراء.ثم تجاوزت تلك المفازات لتحلق فوق شواطئ زرقتها تعكس أشعة الشمس بلمعان صارخ.. يميز الراكب تلك التجمعات السكانية للإمارات السبع , ابتداء برأس الخيمة وام القيوين وعجمان والفجيرة بالشارقة ثم دبي وأبو ظبي. نرى من نافذة الطائرة مشاريع البترول وموانئ التصدير وكواسر الأمواج الذي يحيط بتلك المنشآت. ثم لهب الغاز العملاقة.

على متن رحلتنا الأدباء المغاربة الناقد الكبير د عبد الرحيم علام وزملاؤه..الذين غيروا رحلتهم من الدوحة إلى باريس ..وهناك تنتظرهم ثلاثة أيام ثم الى الدار البيضاء.كما أخبرونا.

من رحلتي إلى مسقط عدت بمجموعة من الكتب منها ما أهاده لي كتابها..ومنه ما حصلنا عليه من معرض الكتاب المصاحب لاجتماعات المكتب الدائم.. وهناك كتب أهديت لنا من مؤسسات.

ومن تلك الكتب: مصلح على العرش لسرجي بليخانوف, نشيد الماء لسعيد الصقلاوي , فيزياء 1البدرية إبراهيم الشحي, أوقات برية لغسان كامل ونوس, عالميدان رايح جاي لسامية العطعوط, السفر آخر الليل ولذة ميتة ليعقوب الخنبشي, الإشارة برتغالية الآن لهدى أحمد, بين قدرين لرأفت سارة, قوس قزح لمحمد عيد العريمي, زنوج وبدو وفلاحة لغالب هلسا, أساطير الأولين لمحمد عبيد الله, القصة في الأردن لجعفر العقيلي ومحمود الريماوي ويوسف ضمرة, الدولة في الفكر الأباضي لمحمد صابر عرب, الشعر العماني الحديث لمحمد ناصر المحروقي, الإيمان بين الغيب والخرافة لخميس بن راشد العدوي, الطبيعة في الرواية العمانية لمنى السليمية, الحادثة الشعرية وهذيان ميت لزياد أبو لبن, خناتة بنونة في المرايا المنعكسة لعدد من الكتاب, شخصيات من تاريخ الكويت لطلال سعد الرميضي, ثقافة العنف لإبراهيم حبيب السعدي, الذي لايحب جمال عبد الناصر لسليمان المعمري, سرديات عمانية لمحمد الرحبي, لعنة الأمكنة للخطاب المزروعي, الصيف الذي يحاذي البحر لسمير درويش, فيض الإحساس لحبراس السمائلي, المياه تخون البرك لعوض اللويهي, يلا بو كبيش والمكري وجوهرة صور لحمود الغيلاني, هب السعد لأمل عبدالله, شمس النهار لحمود الشكيلي, صائد الفراشات الحزين لبشرى خلفان.

ودوما يقطع الإنسان مسافات كي يلتقي بأصدقاء لهم نفس العشق للحرف والأدب ليهديهم كتبه ويعود محملا بأرواحهم ..ينسى بذلك إرهاق السفر ومعاناته..والبعد عن الوطن الذي دوما ما يحمله بداخله.

كانت حصيلة تلك اللقاءات بمهمومين بالأدب والإبداع..أن تناقش أن تعرف بنتاج بلدك بأسماء يجهلها أدباء في أقطار بعيدة ولا يسمعون أو قرؤوا غير البردوني والمقالح وفي أفضل الحالات الزبيري.

هي ليست معركة..لكنها تكامل ..ترويج.. تعريف بشعب له أدباءه ومثقفيه..له مبدعيه ..له نجومه وأقماره الذي نعتز بهم: المقالح والبردوني والزبيري وغيرهم من أجيال متعاقبة ..وبطبعي أنتصر للأدباء الجدد. لوطن له أيضا نجوما في القصة والرواية والمسرح. نحمل نتاجهم لإيصالها إلى أدباء الدول المغاربية.. وشمال إفريقيا والشام والخليج إيمانا منا بجودة ما يبدعون..بل وتفوق بعض الأعمال التي ترقى إلى أفضل نتاج الأدب العربي في الرواية والشعر والتشكيل.

طريق الكتب

كان الكاتب الفرنسي، فيليب لو غويو، المولود عام 1959، في الثالثة عشرة من عمره، سنة 1972.. وذات يوم فيها، أنشأ مجلّة "تيليغرام" التي تستعرض برامج التلفزيون الفرنسي خلال أسبوع. وفاجأه خبر مفاده أن الكاتب والروائي والأديب المسرحي المعروف، هنري دو مونترلان، أطلق رصاصة على رأسه أردته قتيلا، بعد أن كان قد طلب من "سكرتيرته" أن لا تدخل غرفة مكتبه فورا إذا سمعت ضجّة، وأن تنتظر حتى يعم السكون.

لم يكن ذلك الطفل، كما يقول اليوم، يعرف أي شيء عن مونترلان، الكاتب والمؤلف المسرحي وعضو الأكاديمية الفرنسية، أي شيء. بل لم يكن قد سمع باسمه. واكتشف طالب الثانوية في تلك المناسبة، أنه يوجد في العالم كتاب مسرحيون آخرون غير موليير، صاحب "البخيل" و"المريض بالوهم" اللتين كان قد قرأهما في إطار برنامجه المدرسي .

لكن تولّدت لديه، في الوقت نفسه، رغبة كبيرة في البحث عن الأسباب التي تدفع كاتب كبير إلى وضع حد لحياته. وعرف أن البشر ينتحرون في باريس، كما في :بروتانيا، منطقته، ولأسباب عديدة، من بينها: أن يدرك الكاتب المبدع، أنه لم يعد لديه ما يقدّمه من إبداع . فيضع حدا لحياته . وهكذا بدأت مغامرة ولوج عالم الأدب والفكر وكان ذلك دليله إلى " طريق الكتب"، عنوان كتابه الأخير.

ومن الذكريات التي تتردد كثيرا على مخيلة فيليب لو غويو تلك التي تعود الى سنوات شبابه . ذلك بينما كان يشاهد التلفزيون عندما أعلن المذيع اسمي الفائزين في :"الغونكور" و"رينودو". إذ فاز إيميل اجار: الاسم السري للكاتب رومان " غراي" بالجائزة الأولى-هو الكاتب الوحيد في تاريخ جائزة الغونكور الذي فاز بها مرّتين، مرّة باسمه الحقيقي ومرّة ثانية باسمه المستعار.

وفاز بجائزة رونودو، الكاتب باتريك غرانفيل، الذي كان مؤلف هذا الكتاب قد قرأ أحد أعماله. فأرسل اليه رسالة تهنئة. وتتالت الرسائل بينهما وصولا إلى صداقة حقيقية. وهكذا ساعد الأستاذ التلميذ في تطوير مشروع الكاتب الذي كان يتخمّر في أعماقه. وكان غرانفيل، الروائي المعروف، هو الذي سلّم مخطوط الرواية الأولى التي كتبها "تلميذه"، الى دار نشر "ميركور دو فرانس" التي بادرت الى نشرها.

ويورد المؤلف هنا، أسئلة كثيرة تطرح نفسها في هذا السياق، مثل: كيف يختار الإنسان مجال الأدب؟ كيف يجري تبنّي النماذج " الموديلات" المفضّلة من الكتّاب والمبدعين بالنسبة لـ"مشاريع" الكتّاب الجدد؟

ولماذا اختيار مشرب معيّن من الكتابة وليس غيره؟ وفي الإجابة على هذه الأسئلة، نجده يلقى أضواء عديدة على "الطرق المختلفة " التي تقود إلى الكتابة وعالم الإبداع . وهو يتحدث بكثير من الصراحة، عن مساره المهني وعن مصادر إلهامه وعن الكتب والقراءات التي كان لها تأثيرها في توجيهه نحو الطريق الملكي للكتابة والكتب.

ويبين المؤلف، أن السؤال الأول الكبير الذي طرح نفسه دائما : " هل سأصبح كاتبا أو لن أستطيع أن أكون كاتبا؟

المؤلف في سطور

فيليب لو غويو. كاتب فرنسي. سبق له أن قدّم أكثر من أربعين كتابا في مجالات الرواية والدراسات والنقد الأدبي. يسهم في الكتابة ضمن العديد من الصحف والدوريات الأدبية المتخصصة. نال عام 1990 "جائزة المتوسط" للرواية. وحصل في عام 1997 على "جائزة الميديسيز". من مؤلفاته :أسماء الرسّام السبعة، وجبة غداء على ضفاف نهر لوار، جسر الملائكة".

الكتاب: طريق الكتب - تأليف: فيليب لو غويو - الناشر: ميركور دو فرانس- باريس- 2013 - الصفحات: 144 صفحة - القطع: المتوسط